

فاعلية النساء البدويات

سراب أبو ربيعة-قويدر*

عمل الحضور المكثف للمنظمات غير الحكومية والجمعيات الأهلية في المجتمعات البدوية المهمشة، منذ التسعينيات، على فتح فرص للتغيير أمام مجموعات عديدة لا تحصل على خدمات كافية. تعمل نماذج الفاعلية على تمكين النساء في مجتمعاتهن، حيث ثمة فصل بين الجنسين، وذلك بخلق مجموعات وشبكات اجتماعية للنساء وإحياء مؤهلات نسائية تقليدية. وتمتد هذه النماذج بين فاعلية التنظيمات غير الحكومية والفاعلية الاجتماعية للنساء اللواتي يمكن أن ينشطن كأفراد عبر هذه التنظيمات و/أو على المستوى الفردي.

إحياء التقاليد

يرتبط أحد أشكال الفاعلية بإحياء التقاليد النسائية. تقليدياً، عاشت النساء البدويات في الصحراء حيث اشغقت إنتاجيتهن من القيام بمهام أساسية في الحياة اليومية، كالصيد، والتحطيب، وجلب المياه من الآبار، وحلب الماعز، والطبخ، وكونهن مسؤولات -على نحو جماعي- عن الواجبات المنزلية وتربية الأطفال. وضعت هذه الوظائف النساء في قلب عملية اتخاذ القرارات؛ ولكن مع الانتقال القسري إلى التجمعات السكنية الثابتة، فقدت هؤلاء النساء العديد من وظائفهن الإنتاجية، ولم يتمكن

من إيجاد بدائل بسبب انعدام خدمات التشغيل للنساء وللرجال على حدّ سواء. هكذا تحوّلن إلى عاطلات حتّى في حيّزهنّ البيتيّ.

يعمل الجيل الشابّ من النساء على إحياء تلك الوظائف التقليديّة بواسطة جمعيات محليّة ("سدره" و "جمعيّة تحسين مكانة المرأة" اللتين في النقب -وتنطلقان في عملهما من قرية اللقيّة). في المعتاد، تشارك المئات من النساء من نفس القرية في هذه المشاريع، حيث يعملن كمنسّقات، مشرفات، مديرات إنتاج وتسويق. تعمل هؤلاء النساء في صناعة السجّاد أو الحقائب أو الحلّيّ التقليديّة، ويبيعنّها عبر الإنترنت أو بالتسويق المباشر خلال النشاطات المختلفة، ويحصلن -في المقابل- على بعض المردود الماليّ. بهذه الطرق تعمل هؤلاء الطلائعيات على إحياء التراث، ويؤدّين وظائف إنتاجيّة بفضل الدخل الإضافيّ الذي يوفّره للعائلة. هكذا يساهم التمكين الذاتيّ للنساء في تمكين عائلاتهنّ ومجتمعاتهنّ على حدّ سواء.

يشكّل النموذج أعلاه مثالاّ واحداً من ضمن عدّة نشاطات نسويّة متواصلة وكثيرة في الشرق الأوسط، وفي شمال أفريقيا، وفي العديد من المناطق النامية الأخرى. لا تنتكّر هؤلاء النساء لتقاليدهنّ، بل يتبنّينها لتحسين مكانتهنّ وكفاءتهنّ. يتجنّب هذا النموذج من العمل النسويّ الحيّز العامّ والمكشوف، وبذلك فهو يتملّص من المواجهة السافرة مع التوقعات التقليديّة للنساء البدويّات. ولا يخلّ هذا النوع من النشاط بالمنوعات التقليديّة (مثل الانكشاف على المأل)، ولا يمسّ بقيم "العيب" والاحترام التقليديّة. في المقابل، يشجّع هذا العملُ التواصُلَ مع تقاليد النساء الذي يشكّل، شيئاً فشيئاً، تحديّاً لمكانة الرجال البدو (المعيّلين التقليديين للعائلة) عبر تحويل النساء إلى معيلات بقواهنّ الذاتيّة.

ثمّة مشروع آخر بادر إليه المركز العربيّ اليهوديّ للمساواة، "التمكين والتعاون" (أجيك)، لتأهيل نساء للعمل كمصوّرات ومشغّلات دي جي (Dj) في أقسام النساء في حفلات الأعراس. يجري التأهيل في مدينة بئر السبع المجاورة. وبما أنّ المجتمع البدويّ يفصل بين الجنسين ويمنع الالتقاء العلنيّ بين الرجاء والنساء، فإنّه يجري تشكيل حيّز عامّ وخاصّ للنساء في الأعراس. وتشبه ميزات المشاريع أحاديّة الجنس، التي يمكن لمسها فقط في المجتمعات التي تفصل بين الجنسين، تلك المشاريع التي توفّرها مجتمعات قبليةّ أخرى، حيث يكون الفصل بين الجنسين مصدرًا للقوّة، لا للاستضعاف (كما يدّعي الفكر الغربيّ)؛ إذ يتّضح أنّ خلق حيّز تسيطر عليه النساء (المعلّمات مثلاً) هو وسيلة ناجعة، من حيث ملاءمته لوجهات النظر المفصولة جنسيًا في المجتمع.

تعمل الناشطات البدويّات على تعزيز هويّتهنّ النسائيّة الثقافيّة كجزء حاسم من فاعليّتهنّ، وذلك بواسطة التأكيد على وظائف يمكنها أن تضمن لهنّ مكانة أكثر احترامًا؛ أي دور الأمومة-النسائيّ-العائليّ.

إعادة أسلمة النظام الأبويّ

تلجأ النساء البدويّات إلى النصوص الدينيّة لتحديّ النظام الأبويّ، وذلك على المستويين التنظيميّ والشخصيّ الاجتماعيّ الفاعل. رغم أنّ البدو هم جزء من المجتمع الإسلاميّ، تتناقض بعض ممارساتهم الاجتماعيّة مع تعاليم الإسلام، وخاصّة في ما يتعلّق بمكانة المرأة (مثل مسألة الزواج). فتستخدم النساء البدويّات النصوص الإسلاميّة والقرآن بهدف الاستئناف على تابوهات (محرمات) لا

تتناقش -في المعتاد- في العلن أو على نحو أكاديمي في الأوساط البدوية، وعلى رأسها البنية القبليّة للمجتمع، التي تمنع -على وجه العموم- زواجهنّ من رجال من خارج القبيلة. عملَ البدو الرّحل، من منطلق الدفاع عن النفس، على التحالف مع قبائل أخرى تسكن في الجوار، وتزوّجوا من الحلفاء فقط. عملت هذه التحالفات على توفير الحماية للأفراد والمجموعات. لكن رغم التغيّرات الحاصلة (كانتقال العديد من البدو للسكن في قرى، واختفاء البنية القبليّة)، ما زالت العلاقات الزوجيّة تتمّ داخل التحالفات القبليّة القديمة التي ارتبطت بحياة الصحراء. لكن هذه الشيفرة السلوكيّة تضرّ -في أساس ما تضرّ- بالنساء، ولا سيّما المتعلّقات من بينهنّ، اللواتي يُمنعن من الارتباط بعهد الزواج ممّن هو من خارج الحدود القبليّة.

مؤخّراً، قامت العديد من النساء بتحدّي هذا التابو، وذلك بواسطة التنظيمات النسائيّة، وبفضل بعض الناشطات. وبما أنّ النساء لم يستطعن الاستئناف بصورة علنيّة على هذا التابو، فقد عملن على كسر حاجز الصمت الذي يغلفه بواسطة آليّات اعتراض مقبولة، مثل اقتباس نصوص إسلاميّة شرعيّة تمنح النساء (المسلمات) حقّ الزواج من خارج الحدود القبليّة.

تجسّد الأمثلة التالية النضال التنظيميّ والأدوات التي تستعملها الناشطات، ففي تشرين الثاني 2001 عقدت جمعيّة "معاً" (اتحاد الجمعيات النسائيّة العربية البدويّة في النقب)، بالتعاون مع جامعة بنر السبع في النقب، مؤتمراً بعنوان "المجتمع العربيّ البدويّ: بين القبليّة والحداثة". رمى هذا المؤتمر إلى طرح مسألة القبليّة على بساط البحث الجماهيريّ. صحيح أنّ المؤتمر نُظّم كله بأيدي نساء، بيدّ أنّه دُعيَ إليه رجالٌ من عدّة تنظيمات، وذلك لسببين: أولهما أنّ التغيير لا ينبغي أن يحدث لدى النساء

فحسب، بل كذلك من خلال شراكة مع الرجال؛ وثانيهما ابتغاء إشراك الرجال في النقاش والاستئناف على مواقفهم تجاه القبليّة. من هذين المنطلقين دُعيَ ممثلون بارزون من المجتمع البدويّ وأشركوا في المداخلات خلال المؤتمر: قاضٍ شرعيّ؛ شيخ من الحركة الإسلاميّة؛ عاملة اجتماعيّة تحدّثت عن التأثيرات الفسيولوجيّة للقبليّة. وهكذا، فبدل أن تتحدّث النساء أنفسهنّ ضدّ القبليّة، فيجري الاستئناف بذلك على بنية المجتمع البدويّ، دُعيَ رجال دين للتحديث وتوفير التبريرات الدينيّة لإلغاء القبليّة. وبذا، تجنّبت النساء البدويّات وصفهنّ كمتمرّدات، ودافعن عن تنظيماتهنّ. كما يجسّد ذلك كيف يعمل العامل الحدائويّ لاختيار شريك أو شريكة الحياة داخل المجتمع البدويّ. إنّ هذا الدمج بين أسس أكاديميّة (العاملة الاجتماعيّة) وأسس إسلاميّة تقليديّة (الشيخين) يُشرّع عن النقاش العلنيّ في هذا التابو. كما يجسّد هذا النموذج الوساطة بين المحليّ والعالميّ؛ بين الحدائو والتراث. فبدل أن يحلّ طرف محلّ الآخر، يتحوّلان إلى أسس يكمل بعضها بعضاً من المعايير وتخلق حيّزاً لوكالة (Agency). وتشير هذه الحالات إلى إستراتيجيّتين أساسيّتين تستخدمهما النساء البدويّات بغية إحداث التغيير: استخدام شخصيّات ذكوريّة ابتغاء الفوز بالشرعية؛ واستخدام النصوص الدينيّة في النضال النسويّ، أو في "أسلمة النظام الأبويّ من جديد" -كما أدعو ذلك.

خلاصة

يشتمل نضال النساء البدويّات على نفس المميّزات التقليديّة لنضالات النساء في البلدان العربيّة الأخرى في الشرق الأوسط، حيث تستعمل النساء إستراتيجيّات تُسمّى "إنتريزم" (Interism)، وتعكس الاعتقاد الذي مفادُه أنّه على النساء العربيّات التعاون مع التقاليد والمجتمع الأهليّ كتكتيك يرمي إلى التحايل على النظام الاجتماعيّ وتغييره.

لكن، بالمقارنة مع ثقافات شرق أوسطية أخرى، إنّ نضال النساء الفلسطينيات داخل إسرائيل بعامة، والنساء البدويات على وجه الخصوص، يختلف في عدّة مفاهيم. أولاً، تعيش النساء الفلسطينيات تحت نظام إسرائيليّ، ويُعرّفن كأقلية إثنية في دولة لا تعرّف نفسها بأنّها دولتهنّ. لذلك، إنّ أحد محاور نضالهنّ هو العمل ضدّ عمليّات إقصائهنّ وفي سبيل المساواة المدنيّة. ورغم أنّ هذا المحور يشكّل إحدى غايات التنظيمات الفلسطينيّة في إسرائيل، لا يشكّل غاية بالنسبة لتنظيمات النساء البدويات. فيما أنّهنّ يخضعن لعدّة وكلاء اضطهاد، أبويين وسياسيين على حدّ سواء، فهنّ يعملن -في أساس ما يعملن- على المستوى المحليّ في ما يتعلّق بالمشاكل المحليّة التي يعانين منها. بالإضافة إلى ذلك، إنّ النضال المتعلّق بمسألة الأراضي تقوم به -في المعتاد- تنظيماتٌ ذكوريّة (تنظيمات تعمل -في المعتاد- على إقصاء النساء).

وثمة ميزة أخرى للمجتمع البدويّ في إسرائيل لا نجد لها نظيراً في البلدان الشرق أوسطية الأخرى، تتعلّق بالنضال في سبيل تغيير القانون الإسلاميّ. فبينما تعكس قوانين الشريعة الإسلاميّة في بلدان الشرق الأوسط القوانين الرسميّة للدولة، فإنّ هذه القوانين في إسرائيل هي جزء من جهاز المحاكم الشرعيّة، وبالتالي ليس ثمة صلاحية للنساء لتغييرها. وهو الأمر الذي يشكّل تحدياً إضافياً؛ إذ من الصعب فرض قوانين الدولة الإسرائيليّة أو الشريعة الإسلاميّة على مجتمع لا يعمل ووفق هذه القوانين، وبخاصّة حين يتعلّق الأمر بشؤون النساء وقوانين الأحوال الشخصية.

يمكن التعامل مع فاعليّة النساء البدويّات، كما جرى التوضيح في هذا المقال، كجزء ممّا تسمّيه عماليا ساعر "مفاوضات ليبراليّة". وتجري هذه المفاوضات عندما:

[...] يقوم بعض أفراد المجموعات التي هُمّشت بتذويت إستمولوجيّة ليبراليّة، وذلك في سبيل دفع ثقتهنّ إلى أقصى حدّ وتحسين فرص حياتهنّ على أفضل وجه. كما يلجأون الى إستراتيجيّات ترمي إلى تحقيق الأفضليّات المحدودة التي في الإمكان خلقها بفضل مكانتهم المضطهدة في ظلّ الترتيبات الليبراليّة.

بهذا المفهوم، إنّ النساء البدويّات يذوّثن أدواتٍ حدثويّة من خلال استغلال القواعد الديمقراطيّة في المجتمع الأهليّ. ومن خلال هذه الوكالة، تعمل النساء البدويّات على تهجين أسس داخلية وخارجية دون خشية فقدان انتمائهنّ إلى المجتمع، وكذلك يشجّع ابتكار فاعليّات ارتدادية تتوافق مع ظروفهنّ.

* د. سراب أبو ربيعة-قويدر هي باحثة ومحاضرة في معهد بلاوشتين لدراسة الصحراء في جامعة بن غوريون. تتمحور أبحاثها حول التربية، التبادل الثقافيّ، الهوية، والعلاقات الجنديّة في المجتمع الفلسطينيّ في إسرائيل. نشرت العديد من المقالات وكتابا بالعبرية بعنوان "مقصيّات ومحبوبات: قصص نساء بدويّات متعلّمات".